إياكم وهجر القرآن

القرآن الكريم كلام الله ، المنزل على عبده محمد (صلى الله عليه وسلم) المتعبد بتلاوته ، المتحدي بأقصر سورة منه ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، لا يشبع منه العلماء ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد، لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا :" قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا "(الجن:١،٢) ، وقالوا :"يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ " (الأحقاف:٣٠،٣١).

وما أن سمع أحد الأعراب قوله تعالى : "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "(هود:٤٤) ، حتى انطلق قائلاً : هذا كلام رب العالمين لا يشبه كلام المخلوقين ، وإلا فمن ذا الذي يأمر الأرض أن تبلع ماءها فتبلع ؟! ، ويأمر السماء أن تمسك ماءها فتقلع؟! ، ويأمر الماء أن يغيض فيطيع ويسمع ؟!، إنّه رب العالمين ولا أحد سواه .

وهو أحسن الكلام وأجمله ، وأصدق الحديث وأبلغه ، وأحسن القصص وأعذبه ، يقول الحق سبحانه : " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " (يوسف:٣) ، ويقول سبحانه : "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ " (الزمر:٢٣).

وهو عِزُّ هذه الأمة وشرفها ، يقول الحق سبحانه :" لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (الأنبياء:١٠) ، ويقول سبحانه وتعالى : "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ

وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ "(الزخرف:٤٤)، وهذه الأمانة وتلك المسئولية تحتم علينا خدمة كتاب الله (عزّ وجلّ) ، والعناية به وبأهله ، حفظًا ، وتجويدًا ، وتلاوة ، وترتيلًا ، وفهمًا ، وتطبيقًا ، سواء في جانب المداومة على التلاوة والتحذير من هجره أو نسيانه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: "وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا " (الفرقان :٣٠) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا" (متفق عليه) ، أم في جانب المداومة على الحفظ والتذكر والحث عليه ، يقول نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ " (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا " (سنن أبي داود) .

على أن الهجر لا يقف عند حدود هجر التلاوة أو نسيان الحفظ ، إنما الهجر الأكبر هو أن نحفظ القرآن ولا نعمل به ، أو أن يكون حفظنا في جانب وسلوكنا في جانب آخر.

ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) قرآنًا يمشي على الأرض ، كما وصفته السيدة عائشة (رضي الله عنها) ، أي: أن سلوكه كان ترجمة عملية وتطبيقية لآي القرآن الكريم وأحكامه ، وتصف (رضي الله عنها) خلقه، فتقول : "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ" (مسند أحمد) ، وهذا سيدنا سالم مولى أبي حذيفة (رضي الله عنه) أحد القراء الأربعة الذين قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في حقهم : " خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ" (متفق عليه) ، كان (رضي الله عنه) يقول :"يا أهل القرآن زينوا القرآن بأعمالكم" .

وقد بين نبينا (صلى الله عليه وسلم) أن القرآن الكريم قد يكون حجة لنا أو علينا ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ ـ أَوْ تَمْلأُ ـ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا" (صحيح مسلم) ، وفي الأثر : " رُبَّ حامل للقرآن والقرآن يلعنه "، ذلك فيمن

يحفظ القرآن ولا يعمل به ، بل يعمل بخلاف أحكامه وتعاليمه ، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً واضحًا فيمن يحملون كلام الله ثم لا يعملون به ، فقال سبحانه :"مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ "(الجمعة:٥) ، فلنحذر من الهجر سواء أكان هجر قراءة وتلاوة ، أم هجر تدبر وتأمل ، أم هجر عمل وامتثال .

على أن الأهم هو الفهم الصحيح لكتاب الله عز وجل ، وإخلاص النية فيه لله عز وجل ، لا المتاجرة به ، ولا العمل على تحريف كلمه ، واتخاذه مطية للحصول على مكاسب دنيوية ، كهؤلاء المجرمين الذين يقتلون ويدمرون ، ويفسدون ويخرّبون ، من منطلق تأويل خاطئ أو تحريف واضح لبعض نصوص القرآن ، والقرآن والإسلام والإنسانية منهم براء .

* * *